

تألياً : « الأخلاق الطبية » في تراثنا الإسلامي

أ. د. مصطفى لبيب عبدالغنى (*)



توطئة

"مستقر" عند أهل الذكر أنه لا يصح القطع بحكم من الأحكام عن وقائع الماضي في غيبة الوثائق الصحيحة. ولئن كان يلزم أن نقف من تراثنا موقف التلامذة المجتهدين فإنه لن يتيسر لنا فهمه والوقوف على كنهه أو الكشف عن أى جانب من جوانبه إلا بالدراسة النصيَّة المتأنية فنجعل التراث ينطق بما فيه (**).

ولسنا نجانب الصواب إن قلنا: إن معرفتنا الراهنة بالتراث العلمي الإسلامي لا تزال عند مستوياتها الدنيا. فبسبب فقدان أكثر نصوصه، ولتوارى ما بقى منه مبدداً فى أرجاء العالم دونما نشر أو تحقيق، ولقناعتنا بأن النذر اليسير المنشور منه هو بمثابة قطرات فى بحر زحار ولم يخط بعد، ورغم ذلك، بالتحليل الكاشف عن مضمونه، الأصيل، المبين عما قد يوجد فيه من استباق معرفى، فإنه يصعب التعرف الحقيقى على هذا التراث، فضلاً عن الحكم عليه، ولو على سبيل التقريب.

(*) أستاذ الفلسفة وتاريخ العلوم عند العرب بكلية الآداب - جامعة القاهرة.
(**) أحياناً ما يعيب علينا بعض المتصدِّرين للتَّريُّس - فى الحلقات العلمية - أننا دائماً ما نقرأ من نص مكتوب وأن قراءتنا لا تعدو قراءة التلاميذ التى هى أبعد ما تكون عن قراءة الفلاسفة المجددين القادرين على ارتجال الحكمة شفاهة فيتناسون بذلك أهمية المعايير الدقيقة التى يجب أن تضبط عمل الباحثين فى تراث لا يُعرف منه الآن إلا أقل القليل. ولسنا نرى فى ذلك غير عرض لمرض فقدان الهوية يقترن حتماً بتضييع المنافع الحقيقية فى الفهم والارتقاء: فالنصوص هى وحدها برهان الدعاوى وسند الأحكام المقبولة عند كل ذى عقل سليم ينظر نظرة منصفة إلى التراث.

لا بديل عندنا من العكوف على النصوص العلمية، بعد توثيقها، لدراستها دراسة متعمقة تكشف عن جوانبها. ومن التهور أن تستبدَّ البعض منا رغبةً جامحةً فيصادر ابتداءً على جدوى العكوف على تراث ولىّ زمانه وتجاوزته معارف عصرنا فلم يعد يمثلّ، فى أحسن حالاته، إلا طائفة من الأخطاء أو من الحقائق الجزئية القاصرة. وقد تكشف بواعث هذه النظرة عن انسياق أصحابها وراء وهم "مركزية" الحضارة الأوروبية فى التاريخ.

مقدمة :

مَبَحَثُ الأخلاق الطبيَّة "مبحث" أصيل من مباحث علم الطب يتناول جُملة الإلزامات المهنية للأطباء التى نجد صيغة لها فيما عُرف بـ "قسم أبقراط"، والتى ربما كشفت عنها وثائق أقدم مثل ما جاء فى قانون "حامورابى"، وهو لا ينفك عن تراث التأليف الطبى على مر العصور. وتظهر الأخلاق الطبيَّة اليوم، من منظورها الرحب، مشتملة على مسائل الأخلاق والعدالة الخاصة بالصحة وبالميادين المتصلة بها. وغالباً ما يُستخدم مصطلح "الأخلاق الحيوية" Bioethics مرادفاً للأخلاق الطبيَّة Medical ethics برغم اشتمال الأخلاق الحيوية على أمور تتعلّق بالبيئة. وعلى أية حال، فإن الأخلاق الطبيَّة تبيّن ما يجب أن تكون عليه علاقة الطبيب بالمريض بأبعادها المختلفة من قبيل الموافقة على العلاج، وتحريّ الصدق المتبادل وتوافر الثقة والمودة وتتناول الأخلاق الطبيَّة كذلك فقدان اليقين المصاحب أحياناً لسياقات تتطلب بالضرورة إخلاص الأطباء مثل : التجريب الطبى على الأدميين، وحقوق الإسعاف العامة، والرغبة فى التكبُّب.

وفى كل مرحلة من مراحل تطور علم الطب نجدُ مسائل من قبيل : مشروعية نقل الأعضاء أو مصير الأطفال حديثى الولادة المبتسرين، أو التوقف عن علاجات تحفظ الحياة على الطاعنين فى السنّ، والممارسات الطبيَّة مع مَنْ لا يكونون مؤهلين لاتخاذ قراراتهم بأنفسهم بما فى ذلك طب الأطفال والطب النفسى، وكذلك قضايا الوراثة المستحدثة. التى تشتمل على اختيار الذرية بما يؤثّر فى أعضاء الأسرة، وقضايا الإنجاب الصناعى. كما

اتسعت مجالات الأخلاق الطبيّة لتشمل – إلى جانب ما يخص الطبيب والمريض – المؤسسات الطبيّة ذاتها ومصادر تمويلها، وما يتصل بحقوق المرضى في رعاية أفضل، وحقوق الموتى، وحرية النساء المطلقة في قرارات الإنجاب أو في الإجهاض، وحرية الأفراد في إنهاء العلاج أو حقهم في الانتحار. كما يرتبط بالأخلاق الطبيّة خدمات التمريض وضمانات نجاحها. وفي ذلك كله، تظهر الأخلاق الطبيّة بما هي فرع تطبيقي من الأخلاق المهنية عموماً، تلك التي تشتمل على سائر فروع النشاط الإنساني في حاضره ومستقبله.

ولجلال هذا الموضوع وخطره اقترن وجود علم الطب منذ نشأته بتأكيد مجموعة من القيم الأخلاقية الحاكمة لعمل الطبيب في ضوء ما ينبغي أن يكون؛ وهي قيم مستلهمة بالطبع من كل ما يؤثر في السلوك الإنساني على وجه العموم ويحدد له أهدافه ومساراته.

وبما أن العلم وراثه كريمة تتناقلها الأجيال، عصراً بعد عصر، في خبرات متصلة أصبح تاريخ العلم جزءاً حميماً من العلم نفسه. وتطور العلم في التاريخ – على مستوى النظرية وعلى مستوى المنهج – محكوم بسياج من القيم الخلقية والاجتماعية حتى إن مظاهر التفرد والنبوغ عند العباقرة الذين يصنعون للعلم تاريخه لا يتيسر لنا فهمها تماماً بمعزل عن هذا السياق العام.

ثرى هل نالت مثل هذه المباحث العصرية في الأخلاق الطبيّة اهتمام البعض من أطباء المسلمين؟ وإن كان ذلك كذلك فما هي حدود معالجتهم لها؟ وما هي عناصرها الأساسية؟ وإلى أي حد تلازمت نظراتهم مع نظرات أطباء اليونان؟ وهل تجاوزت مباحثهم مباحث اليونان؟ وهل ثمت استباق ما عندهم لمباحث المعاصرين؟

مثل هذه الأسئلة لا تيسر الإجابة التقريبية عليها إلا بعد فحص دقيق للوثائق الطبيّة وتحليلها.

الأسس الدينية للأخلاق الطبيّة عند المسلمين :

إن مبحث الأخلاق الطبيّة، شأنه شأن أي مبحث من مباحث الحضارة

الإسلامية لا يمكن تناوله بمعزل عن العقيدة الإسلامية ونظرتها الخاصة إلى الطبيعة الإنسانية وتحديدها لعلاقة الإنسان بخالقه وعلاقته بنفسه وبغيره.

والإسلام دين اكتملت فيه العقيدة التي جاءت خطابا لعموم الإنسان العاقل واكتملت فيه الشريعة المنظمة لمبادئ الفعل على مستوى الفرد والجماعة واقتربت صحة الاعتقاد على الدوام بالعمل الصالح. وزكى الإسلام قيم الحق والخير والجمال. واستقر في وعى المسلم - في الأساس - أن "الحكمة ضالة المؤمن" وأن ما ينفع الناس يمكث في الأرض. فدعوة الإسلام - إذن - هي دعوة إلى العمل؛ عملا يراقب الإنسان فيه خالقه في السر والعلن ولأن الفعل الإنساني هو في أساسه علاقة بين الأنا والآخر وعى المسلم حقا أن الدين النصيحة، وأن من دل على خير فله مثل أجر المسلم حقا أن الدين النصيحة، وأن من دل على خير فله مثل أجر فاعله، وأن من كتم علمه عن أهله أُلجم يوم القيامة لجاما من نار، وأنه لا يحتكر إلا خاطئ، وأن خير الناس أنفعهم للناس " إذ الخلق كلهم عيال الله وأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله" (1)، وأنه حيث تحققت المصالح فتم شرع الله وأن درء المفسد مقدم على جلب المصالح. ولقد تحول هذا الوعي الذاتي بالواجب إلى تشريع إجرائي صيغته: افعَل كذا ولا تفعل كذا، وفقا للظروف والحاجات المتجددة انطلاقا من الأصول الثابتة.

على أنه يلزم التنبيه ابتداء إلى أن علماء الإسلام ومفكره كانوا على دراية بالتمايز بين الأنساق المعرفية فأدركوا أن العلم الإنساني ليس ديننا وأن عقائد الدين الموحاة المطلقة الصدق، ليست علما من جنس ما نعرفه عن معنى العلم الإنساني في التاريخ. ويوسعنا أن نقرر - خلافا لما هو معلنون - أن الوعي بهذا وصل إلى حد أنهم لم يأخذوا علمهم من الدين بل أخذوا دينهم

(1) من الثابت استيعاب الأطباء المسلمين لما جاء مثلا في كتاب "أبقراط": "الإيمان والعهود" وفي كتابي "جالينوس": "محنة الأطباء" وفي أن الطبيب الفاضل يجب أن يكون فيلسوفاً.

من العلم، وإلى حد اعتبار المجاهدة العقلية هي العبادة الحقيقية (1).
 واستناداً إلى وعى علماء الإسلام بأن حقائق الدين لا تتعلّق تعلّقاً أساسياً بنظريات علمية بعينها إثباتاً أو نفيًا نجد "ابن خلدون"، على سبيل المثال، يتابع ما تقرّر عند سلفه من علماء الإسلام فيصادر على جدوى ما تُطلق عليه حديثاً "أسلحة العلوم" ويتوقّف عند مفهوم "الطب النبوي" مُفرّقاً في ذلك بين ما هو دين وما هو علم (2). على أن هذا النقد للأنساق المعرفية

(1) وفي ذلك يقول "أبو حامد الغزالي" في كتابه "معراج السالكين" : إن "العِلْمُ هو السُّلْمُ المؤدّي إلى معرفة الله سبحانه، فهو الخطّ المكتوب الموعّ المعاني الإلهية، والعقلاء على اختلاف طبقاتهم يقرأونه ومعنى قراءتهم له فهمهم الحكمة التي وُضِعَ دلالٌ عليها"، أو كما يقول في "إحياء علوم الدين - كتاب : عجائب القلب" : "إنّ مَنْ لم تكن بصيرة عقله نافذة فلا تعلق به من الدين إلا قشور، بل خيالاته وأمثله دون لبابه وحقيقته . . فلا تُدرك الأمور الشرعية إلا بالأمر العقلية . . . والنقل جاء من العقل وليس لك أن تعكس . . . والمقلد الأعمى إذا تأمل أمور الشرع يترعى له أمور متناقضة وهي كذلك بالإضافة إلى فهمه، ثم قد تجبن نفسه عن التأمل فيه لضعف عقله وخور طبعه فيتكأف الغفلة عنه خيفة أن ينكسر تقليده فيُدرك تناقضه فيتحيّر ويبطل يقينه. ولو نظر بعين البصيرة لبطل التناقض ورأى كل شيء في موضعه"

(2) وفي ذلك يقول "ابن خلدون" : "للبادية من أهل العمران طبٌ بينونه في غالب الأمر على تجربة قاصرة على بعض الأشخاص متوارثاً عن مشايخ الحى وعجائز. وربما يصحّ منه البعض إلا أنه ليس على قانون طبيعى، ولا على موافقة المزج. وكان عند العرب من هذا الطب كثير، وكان فيهم أطباء معروفون كالحارث ابن كلدة وغيره. والطب المنقول في الشرعيات من هذا القبيل، وليس من الوحي في شيء. وإنما هو أمرٌ كان عادياً للعرب ووقع في ذكر أحوال النبي ﷺ من نوع ذكر أحواله التي هي عادة وجيلة، لا من جهة أن ذلك مشروع على ذلك النحو من العمل، فإنه ﷺ إنما بُعث ليعلّمنا الشرائع، ولم يُبعث لتعريف الطب ولا غير، من العاديّات، ولقد وقع له في شأن تلقح النخل ما وقع، فقال: أنتم أعلم بأمر دنياكم. فلا ينبغي أن نحمل شيء من الطب الذى وقع فى الأحاديث الصحيحة على أنه مشروع، فليس هناك ما يدلّ عليه؛ اللهم إلا إذا استعمل الأحاديث الصحيحة على أنه مشروع، فليس هناك ما يدلّ عليه؛ اللهم إلا إذا استعمل على جهة التبرك وصدق العقد الإيماني، فيكون له أثر عظيم فى النفع. وليس ذلك فى الطب المزجى، وإنما هو من آثار الكلمة الإيمانية، كما وقع فى مداواة المبطون بالعسل".
 ("المقدمة، ص 114، بتحقيق وتعليق على عبدالواحد وافى، القاهرة بدون تاريخ).
 =

والتمييز بين المعرفة الدينية الموحاة والمعرفة العلمية الإنسانية لا يعنى القطيعة وإنعدام الصلة وإنما يكشف بالفعل عن تآزر حقيقى؛ فالعلم يستند إلى قاعدة إيمانية طالما أن التفكير العقلى ذاته هو فعل من أفعال الإيمان. وعلى ذلك تقررت عند الطبيب المسلم علاقة تبادلية بين أحكام الشرع وأحكام الطب. ولقد حرص الأطباء المسلمون على بيان الصلة بين العلم الإنسانى، من حيث هو نشاط معرفى له طبيعة تخصّه وبين نسق القيم الذى يتشكل فى المجتمعات ومن معايير نفعية أو دينية، كما حرصوا أيضا على التفرقة بين النشاط العلمى، الخارج بطبيعته عن دائرة التحليل والتحرير وبين التطبيق العلمى من أجل السيطرة على الواقع وحلّ مشكلاته⁽¹⁾.

وأساس هذا الرأى عند "ابن خلدون" ما رواه الإمام مُسْلِمٌ فى صحيحه من قول النبى ﷺ: "إنما أنا بشر إذا أخبرتكم بشيء من أمر دينكم فخذوا به، وإذا أمرتكم بشيء من رأى فإنما أنا بشر".

(1) نذكر هنا - على سبيل المثال - قول "أبى القاسم الزهراوى" (1404 هـ / 1013م) عن "الإخصاء" Castration: "إن الإخصاء فى شريعتنا محرّم ولهذا ينبغى لى ألا أذكر؛ فى كتابى هذا. وإنما ذكرته لوجهين: أحدهما، ليكون ذلك فى علم الطبيب إذا سئل عنه وليعلم علاج من اعتره، والوجه الآخر أننا كثير ما نحتاج إلى إخصاء بعض الحيوان لمنافعنا" (التصريف لمن عجز عن التأليف، المقالة الثلاثون، الفصل التاسع والستون، الباب الثانى). وموقف الزهراوى واضح هنا تماما فلا مصادرة على العلم لحساب الدين، ولا خلط بينهما يؤبى إلى ضرر محقق، ولا صدام يفتقد إلى أى مشروعية دينية أو علمية.

وكما كان نقد النسق المعرفى فى مجموعه أساسا للتمييز الهام بين حدود العلم - ومن أقسامه علم الطب - وبين حدود الدين دون خلط أو تداخل حرص "ابن رشد" (595 هـ / 1198م) على بيان علاقة التآزر بين العلم والدين؛ فنراه يقول فى معرض الحديث عن "جواز التداوى بالأدوية المطبوخة والتى هى أشبه بالخور العتيقة: "فى هذه الحال يرجع الطبيب إلى الفقيه من جهة والفقيه إلى الطبيب من جهة. أما رجوع الفقيه إلى الطبيب فمن جهة أن الفقيه يأخذ من الطبيب مقدار الاضطراب فيحلل أو يحرم، لقوله تعالى: "وقد فصل لكم ما حرم عليكم إلا ما اضطررتم إليه. والطبيب يأخذ من الفقيه مقدار الحرمة فىأمر بالدواء أو يتجنّبهُ إلى غير؛ (ابن رشد: "كتاب الترياق" ص 421، ضمن رسائل ابن رشد الطبية، بتحقيق جورج قنوتى وسعيد زُيد.

إن علم الطب - في نظر علماء الإسلام - شىء غير المأثور الدينى أو خبرات العرب زمن البعثة النبوية أو بعدها، وهو لا يتأتى للمرء إلا عن دراية بأصوله وإحكام لمقدماته وبطول مزاولة المرضى واكتساب المعارف المتعلقة به وليس شريعة كل وارد يزاحم أهله. ولذلك فإنه على رأى "ابن رشد" - الفقيه التقى وقاضى قضاة زمانه فى قرطبة - لا يُعذر من أخطأ عن جهالة، وهو فى ذلك يتمثل أيضا الحديث النبوى الشريف : "من تطبّب ولم يُعلم منه الطب قُبِلَ ذلك فهو ضامن"⁽¹⁾.

ومع الوعى بالتمايز بين العقيدة الإسلامية والنظريات العلمية ظلت العلاقة حميمة بين الدين وبين العلم من منظور القيمة الأخلاقية على وجه الخصوص، تلك القيمة التى يتحدّد فى ضوئها مصدر الإلزام، أو الالتزام بما ينبغى أن يكون عليه الفعل الإنسانى، والتى يتحدّد على أساسها التوازن بين الحقوق الأساسية للطبيعة الإنسانية وبين الواجبات المفروضة للحفاظ على هذه الحقوق وعدم الافتئات عليها. وحرصت العقيدة الإسلامية على تربية الضمير الأخلاقى؛ فالإسلام جاء ليتمم مكارم الأخلاق وليحقق الكمال الإنسانى لخليفة الله على الأرض، وتلازم فى الإسلام حسنُ الخلق مع صحة الإيمان إذ أن أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم أخلاقا وأنه لا دين لمن لا خلق له. ولأن الإسلام دين للعالمين لم يأت خطابه لجماعة بعينها وإنما جاء خطابا عاما للنوع الإنسانى غير مقيد بقيود الزمان والمكان، بما يُرسّخ فى أعماق المسلم حقيقة الأخوة الإنسانية والارتباط الوثيق بين الفرد والجماعة الإنسانية، وجاء دعوة إلى التعرف على المختلفين من البشر وهو ما من شأنه أن يستهدف وحدة النوع الإنسانى برغم ضروب التباین وعوامل الاختلاف.

ولقد تقرّرت فى عقيدة الإسلام جملة من المبادئ المترتبة على أصل التوحيد واعتبار الله، سبحانه وتعالى، هو وحده الخالق القادر على كل شىء والذى يبدأ الخلق ثم يعيده. من هذه المبادئ المقررة : حق الحياة وضرورة

(1) أخرجه النسائى وأبو داود وابن ماجه والحاكم من حديث عمر بن شعيب عن أبيه عن جده.

المحافظة عليها. واقترن هذا الحق بجوهر الإيمان الصحيح بالألوهية، ومن ثمَّ عُدَّ فعل "القتل" جريمة لا تغتفر لا توبة لمقترفها إذ القاتل مشرك ينازع الله - جل شأنه - حقه المطلق في أن يهب وحده الحياة وأن يحدّد الأجال. وجاءت آيات القرآن الكريم صريحة في تأكيد هذا المبدأ⁽¹⁾.

ومن المبادئ الإسلامية الموجّهة للإنسانية إلى الحياة الفاضلة اعتبار الفرد من أفراد الإنسان ممثلاً للنوع بأسره. وعلى هذا كانت مشروعية الفعل الإنساني وصلاحه في كونه فعلاً يصلح للتطبيق في كل زمان ومكان، أي يصلح أن يكون قانوناً عاماً وقاعدة كليّة. وجاء الخطاب الإسلامي، ممثلاً في الحديث النبوي الشريف، صريحاً وحاسماً وكلياً بأنه [لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه]؛ فكانت الأخلاق الإسلامية أبعد ما تكون عن النزعات الفردية الضيقة أو النفعية التي تعلّى من شأن المنفعة الفردية على حساب المنفعة العامة أو تعلّى من شأن المنفعة العامة على حساب الفرد الواحد.

ومن هذه المبادئ الأساسية حق الإنسان المطلق في المعرفة والنظر في الأنفس والآفاق والنفاد من أقطار السموات والأرض لمن كرّمه الله فخلق له السمع والأبصار والأفئدة ووعد بالهداية إن صدق جهاده. وترتّب على ذلك أن أصبح التعلم المتصل فريضة عامة، ولزم تقدير كل إسهام معرفي يجيئ من أي سبيل؛ فاستوعبت الثقافة الإسلامية على ذلك ما أنجزته الحضارات السابقة وعلى وجه الخصوص الحضارات الفارسية والهندية واليونانية، مع الحرص على

(1) مما ورد في الذكر الحكيم من قول الله سبحانه وتعالى في هذا المعنى : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾ (النساء : 29)، ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً ﴾ (النساء : 92)، ﴿ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾ (النساء : 93)، ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ (الأنعام : ١١٣).

وأساس انعدام مشروعية الانتحار أنه كفر بالنعمة وكفر بالرحمة.

وفي بيان أن قتل النفس التي حرّمها الله إلا بالحق إنما هو قرين للكفر بالله سبحانه جاء قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴾ (الفرقان : ٣١).

ضرورة الارتفاع فوق التقليد وعدم اعتماد صواب المنقول قبل نقده والسعى الدائم لاكتساب المزيد من المعرفة التي لا تستوعبها في لحظة ما، جهود قُدِّرت سلفاً، ولا يستوى في ذلك بالطبع الذين يعلمون والذين لا يعلمون، وتحدّدت قيمة المرء فيما يُحسِنه. ولأنّ الإنسان مسؤل عما يفعله محاسبٌ عليه حساباً عاجلاً في الدنيا وأجلاً في الآخرة استوجبت مسؤوليته لزوم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ ذلك الأمر الذي تجسّد في الإسلام في نظام رائد من أنظمة الدول الإسلامية عُرف بنظام "الحسبة" هدفه مراقبة حدود الالتزام بتقاليد مختلف المهن ومواصفات الجودة التي تتطلبها أعمال بعينها. ولقد شمل نظام الحسبة - ضمن ما شمل - الرقابة على "البيمارستانات" - التي كانت في زمانها من مفاخر الدولة الإسلامية، كما شمل العيادات الخاصة للأطباء وحوانيت الصيدلانيين والعطّارين وأصحاب البيطرة (1). وكان ذلك من أثر النظرة الإسلامية الصحيحة التي اقترنت فيها المعرفة بالفضيلة واقرن الجهل بالرديلة.

ويمكن القول بأن هذه المبادئ الدينية قد حكمت بالفعل تطور علم الطب في الحضارة الإسلامية، تلك الحضارة العالمية التي احتضنت كل

(1) عن نظام الحسبة في الدولة الإسلامية يُراجع - على سبيل المثال - : كتاب "نهاية الرتبة في طلب الحسبة" الذي ألفه عبدالرحمن بن نصر بن عبدالله الشيرازي النبراوي (589هـ / 1193م) للسلطان صلاح الدين الأيوبي، وقد أثبت الشيرازي في مقدمة كتابه الحديث النبوي الشريف : "استعينوا على كل صنعة بصالح أهلها".

- وأيضاً يُراجع كتاب "معالم القرنة في أحكام الحسبة"، الذي ألفه ضياء الدين محمد ابن الأخوة - الذي عاش في مصر، ونشر: R. Levy في لندن سنة 1938.

- وكتاب "الاحتساب" الذي ألفه عمر بن محمد الشامي.

- و"الرسالة الصلاحية في أحوال العلوم الصحية"، التي ألفها هبة الله بن زيد بن حسن ابن افرام بن جميع الإسرائيلي، طبيب صلاح الدين الأيوبي.

- وكتاب "الخطط" ، ج2، لتقى الدين المقرئ الذي أُنتدب للحسبة عام 801+ هـ / 1398م في القاهرة ومدن الدلتا المصرية.

- و"رسالة ابن عبيدون" التي نشرها "برغفسال" Levi Provençal Journal Asiaticque, 1934 .

- "تاريخ البيمارستانات في الإسلام"، أحمد عيسى، القاهرة 1928. إلى غير ذلك من النصوص الكثيرة التي لا تزال مخطوطة.

الخبرات الحيّة لمختلف الثقافات وسارت بها على طريق الارتقاء وبحيث أُتيح للإنسانية - لأول مرة في التاريخ - أن تفكر معا وأن تعمل معا لتحقيق المصالح المشتركة - متخطية قيود الزمان والمكان وستجد لغة عالمية هي اللغة العربية في ظل دولة إسلامية كفلت كل الحقوق لأصحاب الدراية من أهل الاختصاص على اختلاف أجناسهم وعقائدهم⁽¹⁾.

الأخلاق الطبيّة

تناول الأطباء في الحضارة الإسلامية مبحث الأخلاق الطبيّة فيما عُرف عندهم بـ "أدب الطبيب". وجاءت كلمة الأدب جامعة لكل ما يُحترز به عن جميع أنواع الخطأ في ممارسة المهنة على ضوء ما ينبغي أن يكون؛ الأمر الذي يؤكد استخدامه كلمة الأدب في عديد من المؤلفات التي صدرت للتعبير عن التقاليد الواجب اتباعها في كل ميدان من ميادين العمل مثل : أدب القاضي، وأدب الكاتب، وأدب العالم والمتعلّم . إلخ. وحفل التأليف الطبي عند المسلمين بمصنفات كثيرة تناول أصحابها بالدراسة أخلاق الطبيب. وقد عالجت هذه المصنفات مباحث ثلاثة أساسية اشتملت على :

أولاً : ما يجب على الطبيب اعتقاده والآداب التي يُصلح بها نفسه وأخلاقه⁽²⁾.

(1) مما له دلالة في هذا المقام ما أورده "الجاحظ" في كتابه "البخلاء" عن أسد بن جاني الطبيب البغدادي : "كان أسد بن جاني طبيباً فأكسده مرة فقال له قائل : السّنة ويئة، والأمراض فاشية وأنت عالم، ولك صبر وخدمة، ولك بيان ومعرفة، فمن أين تؤنى من هذا الكساد؟ قال : أما واحدة فإنى عندهم مسلم. وقد اعتقد القوم قبل أن أتطبّب، لا قبل أن أخلق، إن المسلمين لا يفلحون في الطب. واسمى ثانية أسد، وكان ينبغي أن يكون اسمى صليبا ومرايل ويوحنا وييرا، وكنتى أبو الحارث وكان ينبغي أن يكون أبو عيسى وأبو زكريا وأبو إبراهيم، وعلى رداء قطن أبيض وكان ينبغي أن يكون رداء حرير أسود. وأخيراً لفظى عربى، وكان ينبغي أن تكون لغة أهل جند يسابور" (الجاحظ : "كتاب البخلاء"، ص 285 بتحقيق طه الحاجرى، القاهرة 1948).

(2) نذكر من هذه المصنفات على سبيل المثال :

- "كتاب معرفة محنة الكحالين" لـ يحيى بن ماسوية (+875م).

ثانياً : محنة الطبيب ، أو بيان المؤهلات والشروط العلمية والبدنية والنفسية اللازمة لحسن مزاولة المهنة.

ثالثاً : ما ينبغي للطبيب أن يحذره ويتوقاه، وبيان الحدود المشروعة لعمل الطبيب.

ومع أدركنا للثورة الهائلة التي حدثت في الطب الحديث في أساليب التشخيص والعلاج، ولدور التكنولوجيا المعاصرة في اكتشاف الكثير من الأمراض وفي تطوير أساليب علاجها على نحو لم يكن متاحاً من قبل، ويرغم المسافة الهائلة التي قطعها الطب الحديث بقفزات متساعرة باعدت بينه وبين المرحلة التي توقّف عندها طب المسلمين، فإننا نرى من الأهمية بمكان أن نكشف عن نظرة الأطباء في الحضارة الإسلامية إلى أخلاقيات الطبيب التي تتجلى في أعمال

- "كتاب امتحان الأطباء" وكتاب "نوادير الفلاسفة والحكماء وآداب المعلمين القدماء" لحنين بن اسحق (877 م).
- "كتاب فرنوس الحكمة" لعلی بن زيد الطبری (ازهر في منتصف القرن التاسع الميلادي).
- "كتاب محنة الطبيب وكيف ينبغي أن يكون" و"كتاب أخلاق الطبيب" لأبي بكر محمد بن زكريا الرازي (+924 م).
- "كتاب أدب الطبيب" لإسحق بن علي الرُّهاوي (من أطباء بداية القرن العاشر الميلادي ؟).
- "كتاب الملكي أو كامل الصناعة الطبيّة" لعلی بن العباس المجوسی (+994 م).
- "كتاب التصريف لمن عجز عن التّأليف" لأبي القاسم الزهراوي (+1013 م).
- "كتاب في شرف الطب" و"النافع في كيفية تعلم صناعة الطب" لعلی بن رضوان المصري (+1067 م).
- "كتاب دعوة الأطباء على مذهب كليلة ودمنة" لابن بطلان المختار بن الحسن (+1063 م ؟).
- "كتاب التشويق الطبي" لصاعد بن الحسن (من أطباء القرن الحادي عشر الميلادي).
- "المقالة الصلاحية في إحياء الصناعة الطبيّة" لهبة الله ابن يوسف بن زين بن الحسن (من أطباء القرن الحادي عشر الميلادي).
- "الرسالة الأفضلية في تديبير الصحة" لـ موسى بن ميمون (+1204 م).
- "رسالة في بيان الحاجة إلى الطب وآداب الأطباء ووصاياهم" لـ محمود بن مسعود الشيرازي (+1311 م).

طائفة من الأعلام المتميزين، لعلنا نجد فيها ما يضيء لنا الطريق.

أبو بكر الرازي

تُمثل المسيرة العلمية والعملية لأبي بكر الرازي التجسيد الحي لما ينبغي أن يكون عليه الطبيب الفاضل في عمله وخلقه، وفي رعايته لمرضاه وحسن معاملتهم، وفي تقديره لذاته ولشرف مهنته النبيلة وهو ما يحرص أشد الحرص على الإشادة به. ويكفي أن نراجع في ذلك ما أثبتته في كتاب "المُرشد - أو الفصول" وفي "محنة الطبيب" وفي كتاب "المنصوري" وفي غير ذلك من رسائله.

وتتجلى نزعتة الإيمانية الراسخة، وهو العالم الفذ الذي تعرض لسوء التقدير إلى حد وصمه بالإلحاد!، في نصيحته للطبيب "أن يتوكل في علاجه على الله تعالى ويتوقع منه البرء، ولا يحسب قوته وعمله ويعتمد في كل أموره عليه... واعلم أن التواضع زينة وجمال. ويتواضع بحسن اللفظ ولينه وترك الفضاظة والغلظة على الناس"⁽¹⁾.

وفي رسالته إلى بعض تلامذته يبيّن الرازي ما يجب أن يكون عليه الطبيب وما يلزم أن يتصف به من صفات، فيقول: "أول ما يجب [على الطبيب] صيانة النفس عن الاشتغال باللهو والطرب، والمواظبة على تصفح الكتب... وينبغي أن يكون رفيقا بالناس حافظا لغيبيهم كتوما لأسرارهم... وإذا عالج من النساء أو الجوارى أو الغلمان أحدا، فيجب أن يحفظ طرفه ولا يجاوز موضع العلة... ولا شيء أجدى على العليل من كون الطبيب مائلا إليه بقلبه محبا له. واعلم أن من الأطباء من يتكبر على الناس لاسيما إذا اختصه ملك أو رئيس... وينبغي للطبيب أن يعالج الفقراء كما يعالج

(1) الرازي: "المُرشد أو الفصول"، ص 185 ، 186، تحقيق ألبيرزكي إسكندر، مجلة معهد الدراسات العربية، المجلد السابع، الجزء الأول، القاهرة 1961. وأيضا: الرازي: "محنة الطبيب"، ص 510 - 511 بتحقيق وتقديم ألبيرزكي إسكندر، مجلة المشرق، المجلد 54 ص 471 - 522، بيروت 1960.

الأغنياء. وهكذا يجب علينا أن نقتفى السُّنة التي سنَّها، الحكيم (أى جالينوس). ورأيت من المتطبيين من إذا عالج مريضاً شديداً المرض فبرأ على يديه داخله عند ذلك عُجِبُ وكان كلامه كلام الجبَّارين، فإذا كان كذلك فلا كان ولا وُفَّق ولا سُدِّد⁽¹⁾.

والرازي يوجب على الطبيب دوام التحصيل ومطالعة الكتب والممارسة العملية المستمرة وملازمة المرضى. فالطبيب الفاضل "لا يكاد يخفى أمره، لأنه يُرى دائماً نصيباً تعباً في النظر والبحث تارة، وفي مزاوله العمل أخرى، ولا يهمله شيء غيره ولا يلتدُّ إلاَّ به، ولا يقوم شيء من أعراض الدنيا عنده مقام ما قد آثره ومال إليه"⁽²⁾. فإلى جانب إتقان النظر والاستدلال وأخذ الحظ الأوفر من الثقافة الطبيَّة لابد من ضرورة العمل على اكتساب الخبرة الإكلينيكية والمران العملي في مدن كبيرة مزدحمة بحيث تتاح له فرصة مخالطة الكثير من الأطباء والتعرّف على الكثير من الأوبئة التي تنتشر في المناطق السكنية المزدحمة. يقول الرازي في كتاب المنصوري: "ومن كان يُدمن النظر في الكتب فينبغي أن يُنظر في مقدار عقله وفطنته، وهل جالس المتكلمين والمتناظرين وهل له قوة في البحث والنظر أم لا. فإذا كان قد أطلَّ صحبة هؤلاء القوم واكتسب منهم حظاً من القوة على البحث والنظر، فينبغي أن يُنظر هل هو ممن يفهم ما يقرأ أو بالضد. وإن كان ممن يقرأ الكتب ويفهمها فينبغي أن يُنظر هل شاهد المرضى وقلبهم، وهل كان ذلك منه في المواضع المشهورة بكثرة الأطباء والمرضى أم لا؟ فمن اجتمعت له هاتان الخِلتان فهو فاضل"⁽³⁾.

يؤكد الرازي، إذن، على قيمة التعليم المستمر وأهمية تواصل الخبرات، ذلك أن "من تعاطى هذه الصناعة وكان أمياً أو عامياً لا يفهم الكلام ولا يجالس

(1) الرازي: "رسالة الرازي إلى بعض تلامذته" مخطوط بدار الكتب المصرية، برقم 119 طب تيمور (ضمن مجموعة).

(2) الرازي: "محنة الطبيب" ص 511.

(3) الرازي: "كتاب المنصوري"، ص 121 بتحقيق وتعليق: حازم البكري الصديقي، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، الكويت 1978.

أهله فلا ينبغي أن يوثق بمعرفته، بل لا ينبغي أن يُظن أن عنده خيرا لأن هذه صناعة لا يمكن للإنسان الواحد إذا لم يحتذ فيها على مثال مَنْ تقدّمه أن يلحق فيها كثير شيء، ولو أفنى جميع عمره فيها، لأن مقدارها أطول من مقدار عمر الإنسان بكثير، وليست هذه الصناعة فقط، بل جُلّ الصناعات كذلك، وإنما أدرك مَنْ أدرك من هذه الصناعة إلى هذه الغاية في أُلوف السنين أُلوف من الرجال، فإذا اقتدى المقتدى أثرهم صار أدراكهم كلهم له في زمان قصير وصار كمن عمّر تلك السنين وعُنِيَ بتلك الغايات، وإنْ هولم ينظر في الكتب ولم يفهم صورة العِلل في نفسه قبل مشاهدتها فهو إنْ شاهدها مرات كثيرة، أغفلها ومَرَّ بها صفحا ولم يعرفها البتة⁽¹⁾.

وعن المحاذير التي ينبه الرازي إليها الأطباء يقول: "إنَّ أول ما يتحلَّى به الطبيب هو صيانة النفس عن اللهو والطب وعدم معاقرة الشراب فربما أحتيج إليه فصوصد وهو سكران فيصغر في أعينهم ويتردى في الأخطاء. وعلى الطبيب ألا يذكر شيئا من السموم القاتلة بين يديّ الأمير ويقول: إنني أعرفها أو أقف على شيء منها أو على ضررها فهذا كله بمعزل عن الطب، ولو سأل المخدم عنها فلا يشرع هو في ذكرها." ويكشف عن عنايته الرفيعة بالمرضى قوله: "إن كان غير واثق بذلك، فمزاج الجسم تابع لأخلاق النفس"⁽²⁾.

ويزداد تقديرنا للرازي إذا أخذنا في الاعتبار وقائع حياته كطبيب عاش في الرِّي وفي بغداد يعالج مختلف طوائف المرضى من البسطاء أو من الأشراف دون أن يقيم أدنى اعتبار لمكانتهم أو يسارهم أو عقيدتهم ودون أن يتدنَّى بمهنته النبيلة فيستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير. ويكشف التحليل العميق للحالات الإكلينيكية التي ذكرها في كتاب "الحاوي" عن حُلُق رفيع ونفس نبيلة وحس إنساني، كما يكشف عن صلابة لا يعتورها الخور لتأكيد

(1) المصدر السابق، ص 504 – 505.

(2) ابن أبي أصيبعة: "عيون الأنباء في طبقات الأطباء"، ص 420، بتحقيق نزر رضا، دار مكتبة الحياة، بيروت، 1965.

مكانة الطبيب المسلم – متى توافرت له المهارة الفائقة مع العلم الصحيح – فى وقت ساد فيه سوء الظن وعدم التقدير للطبيب غير النصرانى أو الذى لا ينتسب إلى جند يسابور! وليس أحد غير الرازى هو الذى كسر هذا الجليد وعبأ الطريق أمام المسلمين ليتبوءوا المكانة الرفيعة فى تاريخ الطب⁽¹⁾.

إسحق بن علىّ الرهاوى

نحن مع أول وثيقة هامة مكتملة تبحث فى "الأخلاق الطبيّة" عند المسلمين وهى التى ظهرت بعنوان "كتاب أدب الطبيب" – فى مقدمة وعشرين باباً .

وحتوت أمهات المسائل المتعلقة بواجبات الطبيب والمشكلات التى تثيرها ممارسة هذه المهنة النبيلة.

ولبيان القاعدة الإيمانية الراسخة التى يجب أن تركز عليها مهنة الطب ابتداءً يذكر الرُّهاوى فى الباب الأول من كتابه⁽²⁾ هذا أول ما يذكر "الأمانة والاعتقاد الذى ينبغى أن يكون الطبيب عليه والآداب التى يصلح بها نفسه وأخلاقه" فيبيّن أن "أول ما يلزم الطبيب اعتقاده صحة الأمانة؛ وأول الأمانة اعتقاده أن لكل مكوّن مخلوق خالقا مكوّنًا واحداً قادراً حكيماً فاعلاً لجميع المفعولات بقصد، مُحيياً مُميتاً، مُمرضاً مُشفيّاً، أنعم على الخلائق منذ ابتداءً خَلَقَهُم بتعريفهم ما ينفعهم ليستعملوه إذ خَلَقَهُم مضطرين وكشف لهم عما يضرهم ليحذروه إذ كانوا بذلك جاهلين. فهذه أول أمانة واعتقاد ينبغى للطبيب أن يتمسك بها ويعتقدها اعتقاداً صحيحاً.

(1) يُراجع فى ذلك :

Max Meyerhof, "Thirty – three Clinical observations by Rhazes", Isis, v. 23, 1935.

(2) رجعنا إلى النشرة التى حققها مريّزَن سعيد كتاب "أدب الطبيب" ونشرها مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض، 1992.

والأمانة الثانية أن يعتقد لله – جلّ ذكره – المحبة الصحيحة وينصرف إليه بجميع عقله ونفسه واختياره، فإن منزلة المحب اختياراً أشرف من منزلة الطائع له خوفاً واضطراًراً.

والأمانة الثالثة أن يعتقد أن لله رسلاً إلى خلقه هم أنبيأؤه أرسلهم إلى خلقه بما يصلحهم، إذ العقل غير كاف في كل ما يصلحهم دون رسله . . . كما اختار من الخلق لرسالته الصفة ممن يشاء. فهذه أصول الأمانات التي يجب على الطبيب أن يستسر بينه وبين خالقه ويعتقدتها اعتقاد صحيحاً⁽¹⁾.

إن الصلة الوثيقة التي يراها الرُّهاوى منعقدةً بين صحة الإيمان وكمال مهنة الطب دفعته إلى التحذير من الطبيب الذي لا إيمان له فيقول : "فليس ينبغي لك أن تحفل بمن عدل عن هذه الأمانات ظنا منه ببطانها فأزرى على الشرائع وأظهر التُدُّهر والزندقة فليس ذلك منه إلا جهلا يسوقه إلى الهلاك وسوء العاقبة، فإن دعتك نفسك إلى أن تختبره وينكشف لك جهله فاسأله عما اعتقده لم اعتقده ؟ ولم عدل عن اعتقاد الكافة وأهل شرعه ؟ فإنك من مبتدأ جوابه تستدل على حيرته وسوء عقله، ولعله أن يكون في ذلك مقلداً لمن كان يصحبه ممن كان يذهب ذلك المذهب، ويعتقد ذلك الرأي، ميلا إلى الرُّخصة وخلع العذار، وشوقا إلى بلوغ اللذات، ولم يزل هواه يغلبه ولذاته تغره حتى انطمست عين عقله وعميت عن النظر الصحيح فيما يصلحه ويرشده إلى المذهب الحق والرأي الصحيح ودائماً ذلك دأبه . . . لذلك يكون الضررُ أعظم كثيراً ممن اعتقد هذه الآراء، والآفات على الناس أشد، والبلاء أكثر من الأحداث والجهال التابعين لهم ، ليل الأحداث إلى اللذات وسرورهم بالرُّخصة وقلة التكلفة فهم بذلك يبيحون المحرمات، ويستحلون المحظورات⁽²⁾ وعلى ذلك ينتهي الرُّهاوى إلى أن "الأمانة مع العلم يدفعان الهوى ويهديان إلى الحق، فمن بان علمه واتضحت أمانته فقد وجب أن يوجد الحق عنده ووجب اتباع

(1) إسحق بن علي الرُّهاوى : "أدب الطبيب" ص 41.

(2) المصدر السابق، ص 41 - 42.

أمره ونهيه واتخاذهِ إماماً إلى الحق والهدى والمصالح⁽¹⁾. وإنه إذا كان ينبغي للطبيب أن تكون فيه رحمة فإن ذلك "لا يتم إلا بتقى وخوف الله جلَّ وعزَّ"⁽²⁾.
 ويُنبه الرُّهاوى المشتغل بالطب إلى خطر قرناء السوء من الزملاء والتلاميذ والمعاونين كما يحذر من الوقوع تحت سلطان المال وعبوديته الأمر الذى يتنافى مع مقاصد الطبيب النبيلة، وذلك فى قوله : "وأنتَ أيها الطبيب يجب أن يُبعد عنك الأشرار من الأصحاب والتلاميذ، فإن جميع ما يأتى من صحبتك وخدمك منسوب إليك من قول وفعل، واعلم أن الفقر مع الحلال أصلح من الغنى مع الحرام. والذكر الحسن مع بقائه خيرٌ من نفيس المال مع فنائه، وأيضا فإن المال قد يوجد عند السفهاء والجهَّال والحكمة لا توجد إلا عند أهل الفضل والكمال"⁽³⁾.

ثم يعالج الرُّهاوى فى الباب الثانى التدابير الصحية للأبدان، وبها يُصلح الطبيب جسمه وأعضائه، وللأنفس وبها يتحقق التوازن النفسى المنشود. ثم يبيِّن فى الباب الثالث ما ينبغى على الطبيب أن يتوقَّاه ويحذره من خصال السوء وما ينبغى أن يتحلَّى به من الفضائل العالية "فأول ما ينبغى للطبيب ألاَّ يكون حقودا ولا حسودا ولا عجولا ولا ملولا ولا صلِّفا ولا شرها، بل يكون للذنب مصافحا وللناس مسامحا ثابتا متوقعا وللأمر عارفا ليُنا متواضعا وإلى الخيرات مسارعا قنوعا شكورا ويحسنُ الثناء مسرورا وعن المآثم عفيفا وفى باطنه وظاهره نظيفا.

وإذا كان الطبيب آخذا لنفسه بهذه الأخلاق المحمودة فإنه لا يرى أن يقابل جاهلا لئلا يكونا فى الجهل بالسوية، ولا يرغب فى الحرام من الأموال لئلا يكون مختالا، فكم ممن قد أرغبهم الأشرار من الرجال والنساء ببذل الأموال والمواعيد وأنواع الخدم فلشرهم وجهلهم أعطوا أدوية قنَّالة،

(1) المصدر السابق، ص 195.

(2) المصدر السابق، ص 161.

(3) المصدر السابق، ص 58.

ومذرحات أسقطت الأجنّة وأشباه ذلك من الأمور المهلكة. جميع ذلك جهلا بالعواقب، وكُفرا بالمنعم، فلو سعدوا بصحة الفكر وجودة التمييز لعلموا أن الخالق – تبارك – عادل لا جور عنده وأنه يكافئ المرء بحسب دينه فمن قُتل قُتل، ومن أفقر أفقر، ومن سلب سلب، ومن أمرض أمرض، ومن خدع خدع. ولو علموا أيضا أن الإمهال من البارئ تعالى للمذنب تدرّيج وحجة عليه لسارعوا إلى الإقلاع عن الذنوب، وزهدوا من الدنيا من كل محبوب، وكان الخير الحق هو عندهم المطلوب⁽¹⁾.

ويُنبه الرُّهاوى إلى ضرورة الخبرة الفائقة في تشخيص الأمراض وجودة تمييز العلامات والأعراض المتشابهة إذ لا ينبغي للطبيب أن يعالج مريضا لم يتحقّق عنده مرضه، لئلا يوقعه في مرض آخر يكون أعظم من الأول، فيحتاج أن يُعالج من العلاج⁽²⁾. و"لا ينبغي للطبيب أن يُسقى دواء مُسهّلا إلا بعد حذر وتوق، فإن وجب عنده إعطاؤه فيجب أن يستجيده ويقوم على إصلاحه ويختار له الزمان والوقت"⁽³⁾ إذ أن المحافظة على القوة واستعادة الصحة هي مقصد الطبيب من العلاج.

ويؤكد الرُّهاوى على أنه "لا ينفع الطبيب مدح الأشرار وأهل الخداع له، فلذلك لا ينبغي أن يُسرّ بذلك، لأنهم مخادعوه بحمدهم، ومحتالون لاستعباده .. ولا ينبغي للطبيب أن يحفل بدمّ ذام له على صواب أتاه، ولا ينته عن الصواب ولوناله مكروه ولا يلتفت إلى قول يسمعه من المريض ولا يرضيه، فإن كثيرا من الأمراض يُفسد التخيل والتمييز، بل ينبغي له أن يعمل ما يجب"⁽⁴⁾.

وفي الباب الرابع – الممتع – من أبواب الكتاب ذكرّ لما يجب على الطبيب أن يوصى به حدم المريض، وفيه يتحدّث عن التمريض وشروطه وأهدافه وقيّمته البالغة في نجاح عمل الطبيب، والتحذير من أن التهاون في

(1) المصدر السابق، ص 164 – 165.

(2) المصدر السابق، ص 166.

(3) المصدر السابق، ص 166 – 167.

(4) المصدر السابق، ص 167.

هذا الشأن يُفسد العمل كله (1).

ثم يُفصّل بعد ذلك "آداب عُوَاد المريض" فيحدّد ضوابط الزيارة وبخاصة زيارة المرضى من ذوى الحالات الحرجة (2).

وتتوالى بعد ذلك فصول الكتاب المتعة، والتي يعرض فيها الرُّهاوى ضمن ما يعرض - لأسباب تدهور صناعة الطب ولانعدام القدوة المؤثرة في توجيه عمل الأطباء، ولا يفوته أن يعرض لخطر الثقافة الدينية المتخلّفة والتي غالباً ما تكون قرينة للخور الأخلاقي، وذلك في مثل قوله: "والسبب الأعظم الذى سهّل فى هذا الوقت على كل أحد الدخول فى صناعة الطب والجسارة عليها هو الرأى الذائع المشهور: إن كل ما يفعله الإنسان من الأفعال المحمودة والمذمومة فذلك الفعل عن الله تبارك، لا عن الإنسان. فلمّا سمعَ الأشرار وأصحاب الحيل أنّ مَنْ سَرَقَ أو قَتَلَ أو زَنَى أو فعلَ أى فعل كانَ ذلك منسوباً إلى الله تعالى، إذ هو فاعلٌ لذلك، وثق الداخلون فى صناعة الطب بذلك واطمأنوا فجسّر كلُّ أحد على الدخول فيها والتعرّض لسقى الأدوية والفسد والبزل وغير ذلك بغير معرفة لعلمهم بأن الناسَ عند هلاك مَنْ يهلك على أيدي الأطباء يعذرونهم ويردون ذلك إلى قضاء البارى" (3).

وفى باب "فى امتحان الأطباء" يُفصّل الرُّهاوى الأسباب الموجبه لمحنة الطبيب (فى أصول الطب وفروعه وفى أساليب العلاج المقررة) على نحو يكشف عن استيعابه لما كتبه السابقون، من يونان ومحدثين، فى ذلك، وبما يساعدنا كذلك فى الوقوف على مستوى التعليم الطبى فى عصره. ومن الأسباب الموجبة لمحنة الطبيب "صعوبة" الصناعة وطولها . . فأستصعب لذلك دركها وخاصة على أهل الكسل والتوانى وعلى مَنْ غلطت قريحته وقنع منها بالتكسُّب باسمها . . لذلك يجب أن يفتش عن ادعاها لينظر هل هو

(1) المصدر السابق، ص 168 - 170.

(2) المصدر السابق، ص 171 - 173.

(3) المصدر السابق، ص 240 - 241.

من أهلها بالحقيقة – لأنه قد أفنى زمنه في درس كتبها وفي صحبة أهلها وفي خدمة المرضى وعانى من أمرها ما يستحق معه أن يوثق معه في تدبير الأبدان والنفوس ؟ أو هو ممن ينبغي أن يُحذر على النفوس منه، وأيضا فإن من أسباب المحنة للأطباء ما يظهر من نفعها للأطباء خاصة ولسائر الناس عامة، أما للأطباء فلينبه من كان ساهيا وتحت من كان متشاعلا بغيرها وتحركه على اقتنائها⁽¹⁾. بعد ذلك يذكر الرُّهاوى كيف ينبغي أن يُمتحن الأطباء في "كليات" الطب وأقسامه وبحيث يشمل الامتحان علمه وعمله وخلقه⁽²⁾. وفي فصل تال يُبيِّن الرُّهاوى "الوجه الذى به يقدر الملوك على إزالة الفساد الداخلى على الأطباء، والمرشد إلى صلاح سائر الناس من جهة الطبيب" فيقرر محاسبة الأطباء عندما يثبت تقصيرهم وإضرارهم بالمريض، ويكون ذلك بمعرفة لجنة من الأطباء المختصين ومن ضوابط محدّدة، ومن العقوبات المقررة فى هذا الشأن منع الطبيب من مزاولة مهنته. ولا يفوت الرُّهاوى هنا التنبيه إلى وجوب كفالة حقوق الطبيب عندما يظهر لأهل البصيرة من العلماء بصناعة الطبيب سلامة التشخيص وإجراءات العلاج المتبعة، وذلك فى الحالات التى قد يُتهم فيها الطبيب بأن غلظه هو الذى تسبب فى الوفاة أو فى إلحاق ضرر بالغ بالمريض⁽³⁾.

ويحرص الرُّهاوى بعد ذلك على التحذير من خدع المحتالين الذين يتسمون باسم الطب وأن يبيِّن الفرق بين خدعهم والحيل الطبيّة⁽⁴⁾.

ونستمع، فى نهاية هذا الكتاب الهام إلى قول الرُّهاوى : "ووجه العدل وابتدأؤه ينبغي أن يكون من الطبيب أولا وذلك بأن يُروِّض نفسه ويأخذها دائما باستعمال الأخلاق المحمودة، والأفعال المرضيّة من الرحمة والرأفة والرفق والعفة والقناعة والشجاعة والسخاء والصدق وكتمان السرّ، وجميع ما

(1) المصدر السابق، ص 243.

(2) المصدر السابق، ص 244 – 260.

(3) المصدر السابق، ص 263 – 265.

(4) المصدر السابق، ص 266 – 276.

جانس ذلك من فضائل النفس وآدابها مع الاجتهاد في اقتناء صناعته ودُرس كتبها والمعاناة لأعمالها، وبذلها للناس كافة، ولا تُقَرِّق في ذلك بين صديقه وعدوه، ولا بين موافقه ومخالفة"⁽¹⁾.

أبو القاسم الزهراوى :

فى أواخر القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى يحيى أبو القاسم الزهراوى مثالا رفيعا للطبيب المسلم الذى يضطلع بمسئوليّاته الأخلاقية والعلمية. وكتابه "التصريف لمن عجز عن التأليف"، وعلى وجه الخصوص الجزء الثلاثون منه وهو الدُرة الجراحية "رسالة فى العمل باليد" آية بيّنة على هذا الالتزام بالواجبات الأخلاقية للطبيب. وجدير بالاهتمام وعى الزهراوى بمخاطر المهنة فى زمانه، وكثير منها لا يزال مثارا للجدل حتى يومنا هذا؛ وذلك من قبيل : مدى مشروعية استجابة الطبيب لرغبة مريضة الملحة أحيانا فى أن يضع نهاية لحياته طلبا للراحة من عذاب ألم لا يُطاق، ومدى السلطة التقديرية للطبيب فى التعجيل بالموت أو ما يُسمى "بالقتل الرحيم" بعد استنفاد كل أساليب العلاج الممكنة.

يبادر الزهراوى فينبه تلاميذه إلى ما يجب على الطبيب فى هذا الشأن؛ خاصة وأن هذا الأمر هو أكثر إلحاحا للجراح دون غيره من الأطباء، فيقول فى مقدمة الباب الثانى من المقالة الثلاثين : "ينبغى أن تعلموا يا بنيّ أن هذا الباب (أى الجراحة) فيه من الغرر فوق ما فى الباب الأول من الكى، ومن أجل ذلك ينبغى أن يكون التحذير فيه أشد لأن العمل فى هذا الباب كثيرا ما يقع فيه الاستفراغ من الدم الذى به تقوم الحياة عند فتح عرق أو شق على ورم أو بطن حُرّاج أو علاج جراحة أو إخراج سهم أو شق على حصاة ونحو ذلك مما يصحب كلها الغرر والخوف ويقع فى أكثرها الموت. وأنا أوصيكم عن الوقوع فيما فيه الشبهة عليكم فإنه قد يقع إليكم فى هذه الصناعة (ضروب) من الناس يضجرون من الأسقام فمنهم من قد ضجر

(1) المصدر السابق، ص 287.

بمرضه فهان عليه الموت لشدة ما يجد من سقمه، وطول بليته وبالمرض من التعذر ما يدل على الموت، ومنهم من يبذل لكم ما له ويغنيكم به رجاء الصحة، ومرضه قتال . فلا ينبغي لكم أن تساعدوا من أتاكم من هذه صفته البتة. وليكن حذرکم أشد من رغبتكم وحرصكم، ولا تُقدموا على شيء من ذلك إلا بعد علم ويقين يصح عنكم بما يصير إليه العاقبة المحمودة. واستعملوا في جميع علاج مرضاكم تقدمة المعرفة والإنذار بما تؤول إليه السلامة فإن لكم في ذلك عوناً على اكتساب الثناء والمجد والذكر والحمد، ألهمكم الله يا بنى رُشدِه ولا حرمكم الصواب والتوفيق إن ذلك بيده لا إله إلا هو".

وفى مواجهة القيود والمحاذير الاجتماعية التي كانت تصادف الطبيب فى جراحات النساء يدعو الزهراوى إلى ضرورة تشجيع النساء على تعلم مهنة الطب. وتظهر عند الزهراوى قيمة فضيلة "الحياء" المقترنة بالرفق الذى يجب أن يكون عليه الطبيب، كما يظهر حرصه على ضرورة أن يتكيف الطبيب مع ظروف عصره وبيئته ضماناً لنجاحه. وفى ذلك يقول وهو يصنف عملية إخراج الحصة للنساء: إن عرض لأحد منهن حصة فإنه يعسر علاجها ويمتنع لوجوه كثيرة : أحدها أن المرأة ربما كانت عفيفة أو من ذوات المحارم، والثالثة أنك لا تجد امرأة تُحسن هذه الصناعة ولا سيما العمل باليد، والرابعة، أن موضع الشق على الحصة من النساء بعيد عن موضع الحصة فتحتاج إلى شق غائروفى ذلك خطر، فإن دعت الضرورة إلى ذلك فينبغى أن تتخذ امرأة طبيبة محسنة، وقليلاً ما توجد، فإن عدمتها فاطلب طبيباً عفيفاً رفيقاً أو أن تُحضر امرأة قابلة محسنة فى أمر النساء أو امرأة تشير فى هذه الصناعة بعض الإشارة فتحضرها وتأمرها أن تضع جميع ما تأمرها به ⁽¹⁾.

وفى بيان الصلة بين العلم – من حيث هو نشاط معرفى له طبيعة تخصه – وبين نسق "القيم" الذى يتشكل فى المجتمعات وفق معايير دينية أو نفعية، وفى التفرقة كذلك بين النشاط العلمى فى ذاته – الذى هو خارج دائرة التحليل والتحريم – وبين تطبيقه العلمى من أجل السيطرة والتسخير فى حل

(1) الزهراوى : المقالة الثلاثون، الفصل الحادى وستون، الباب الثانى.

المشكلات، لأنصار الزهراوي على العلم لحساب الدين ولا يخلط بينهما.

علی بن رضوان

يولى علی بن رضوان - رئيس الأطباء فى ديار مصر فى منتصف القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى - "الأخلاق الطبيّة" أهمية ملحوظة. وقد أورد "ابن أبى أصيبعة" فى كتابه "عيون الأنباء فى طبقات الأطباء" من أقوال "ابن رضوان" ما يكشف لنا عن التوجّهات الأخلاقية التى تحكم الممارسة الطبيّة عنده.

وذلك من مثل قوله : "اجتهد فى حال تصرفى فى التواضع والمواراة وغيث الملهوف، وكشف كُرْبَة المكروب، واسعاف المحتاج، وأجعل قصدى من كل ذلك الالتذاد بالأفعال والانفعالات الجميلة وأجعل ثيابى مُزَيَّنَة بشعا الأخيار والنظافة وطيب الرائحة، وألزم الصمت وكفّ اللسان عن معائب الناس، وأجتهد أن لا أتكلّم إلا بما ينبغى. وأنوقى الأيمان ومثالب الآراء فأحذر العُجْب وحبّ العُلبَة، وأطرح الهمّ. والاعتماد. وإن دهمنى أمرٌ فادح أسلمتُ فيه إلى الله تعالى، وقابلته بما يوجبه التعقل من غير جُبْن ولا تهوّر. مَنْ عاملته عاملته يدًا بيداً . . . وما بقى من يوحى بعد فراغى من رياضتى صرفته فى عبادة الله سبحانه أنزّره بالنظر فى ملكوت الله والسموات. وأنفق فى خلوتى ما سلف فى يومى من أفعال وانفعالات، فما كان خيرا أو جميلا أو نافعا سُررت به وما كان شرا أو قبيحا أو ضارا اغتممت به ووافقت نفسى بأن لا أعود إلى مثله. قال : وأما الأشياء التى أنزّره فيها فلأنى فرضتُ نزهتى ذكر الله عزوجلّ وتمجيده بالنظر فى ملكوت السماء والأرض" (1).

وهذا الوعى بما يجب أن تكون عليه أخلاق الطبيب موصول بما استقر من تقاليد راسخة حكمت الممارسة الطبيّة عند القدماء - وعلى وجه الخصوص عند "أبقراط" و"جالينيوس". فمما نقله "ابن أبى أصيبعة" عن "ابن رضوان" ما يلى : "ومن كلامه نقلته من خطّه قال : الطبيب على رأى بقراط :

(1) ابن أبى أصيبعة : "عيون الأنباء فى طبقات الأطباء"، ص 561 - 562.

الأول : أن يكون تام الخلق، صحيح الأعضاء، حسن الذكاء، جيد المروية، عاقلاً، ذكورا، خيراً الطبع.

الثانية : أن يكون حسن اللبس، طيب الرائحة، نظيف البدن والثوب.

الثالثة : أن يكون كتوما لأسرار المرضى لا يبوح بشيء من أمراضهم.

الرابعة : أن تكون رغبته في إبراء المرضى أكثر من رغبته فيما يلتمسه من الأجرة ورغبته في علاج الفقراء أكثر من رغبته في علاج الأغنياء.

الخامسة : أن يكون حريصا على التعليم والمبالغة في منافع الناس.

السادسة : أن يكون سليم القلب، عفيف النظر، صادق اللهجة، لا يخطر بباله شيء من أمور النساء والأموال التي شاهدها في منازل الأعداء فضلا عن أن يتعرض إلى شيء منها.

السابعة : أن يكون مأمونا ثقة على الأرواح والأموال، لا يصف دواءً قتلًا ولا يعلمه، ولا دواءً يسقط الأجنة، يعالج عدوه بنية صادقة كما يعالج حبيبه⁽¹⁾.

وفى بيانه لشرف الطب وللصورة المثلى التي يجب أن يكون عليها الطبيب يقول "ابن رضوان" : "وقد بيّن (جالينوس) فى مقالة مفردة أن الطبيب يجب أن يكون فيلسوفا، وقد بيّن العارف أرسطوطاليس أن التفلسف ولاية لله عز وجل لأن الفلسفة النظرية هى الوقوف على وجوه الحكمة فى الأشياء السماوية والأرضية، وعلى الحق فى الله وفى أوليائه فيصلير فى نفس الفيلسوف من عظمة الله وتمجيده ما يبهر العقول، ولا يمكن وصفه بلسان، والفلسفة العملية اكتساب المال الحقيقى بالعمل الصالح وطاعة العقل وحسن معاشرة الأهل". وخلاصة - رأى "ابن رضوان" هنا هى أنه "إن كان الطبيب الفاضل يجب أن يكون فيلسوفا فهوولى من أولياء الله عز وجل؛ وإنما يحصل له هذه السعادة إذا عبد الله ومجده بأفعاله وعالج المرضى احتسابا وطاعة لله فى إظهار ما خآقه من المنافع . . .".

(1) المصدر السابق، ص 565.